تبرير الغناء

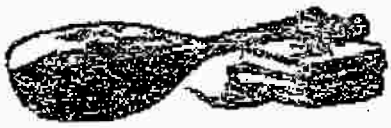

للأستاذ السيد كمال الشوربجي

ثالثاً — ﴿ الأدلة الواقعية ﴾ : —

١ — قالوا قديماً (خلق الغناء ليهب الفرح والسرور ، وخلق الفرح والسرور ليهب الغناء) فهما توأمان حبيبان لا ينفصل أحدهما عن الآخر . وقد أثبت الطب أن الفرح والسرور يغذيان الجسم ويساعدانه على النمو ، إذ بالسرور تنشط جميع الأجهزة في داخل الجسم فتقوى المعدة على الهضم ويقوى القلب على التنفس وهكذا . لذلك كرهوا أن ينام الطفل على أثر البكاء حتى يرقص ويطرب . فقد ثبت بالتجربة أن الطفل يسكن الى الصوت الحسن ، والجمل يقاسي مشقة الأسفار وثقل الأحمال فيهون عليه بالحداء ، والركب قديماً كان لا بد له من حاد يهون عليه الطريق ، كما أن الخيل كانت تسير وتشرب بالصفير . ولذلك قال الشاعر : —

أدرها بالصفير وبالكبير وخذها من يد القمر المنير
ولا تشرب بلا طرب فاني رأيت الخيل تشرب بالصفير

وكذلك النحل يطرب بالغناء وأذا أفراخها لتستنزل مثل الرجل والصوت الحسن قال الراجز .

والطير قد يسوقه الصوت اصغاؤه الى حنين الصوت

ومن هذا استنتج الفقهاء دليلا على اباحة الغناء . فقالوا : لفريد الطيور وسماعها مباح فان قال أحمد حرام حكمنا بجنونه وإن قال مباح فالطرب من البشر مثله ، ولن قال الصوت المطرب يستخرجه الناس من الآلات أو من المغنين قصداً واختياراً قلنا له وكذلك مع الطير يقصد سماعها ولا يحرم عليه ذلك .

٢ — وقد يتوصل بالألحان الحسان الى خير الدنيا والآخرة ، فمن ذلك أنها تبعث على مكارم الأخلاق من اصطناع المعروف وصلة الرحم والذب عن الأعراض والتجاوز عن الذنوب ، وقد يبكي الرجل بها على خطيئته ويرقق القلب من قسوته ويتذكر نعيم الملكوت

ويشمله في ضميره.. وكان أبو يوسف القاضي اذا حضر مجلس الرشيد وفيه الغناء فيجعل مكان السرور بكاء كأنه يتذكر به نعيم الآخرة فهو بمثابة رياضة روحية بها يصل العابد الى أعلى درجات النسك. ولذلك نجد المتصوفة كثيراً ما يستعينون بالموسيقى (النايات في أذكارهم ويقولون . أغثنا أدركنا . يا من عيني) . وقديماً قال أبو نواس حين حج مع الشاعر جنان وقد أحرم الشعر الآتي يحدو به ويطرب فغنى به كل من سمعه وهو :

إنّهـا ما أعدلك ... سليك كل من ملك
لبيك قد لبيت لك ... لبيك إن الحمد لك
نولاك يا رب هلك ... صعلوك نبيّ وملك
وكل من أهلّ لك ... سبّح أو لبّى فلك

ويقول ابن الفارض :

قلبي يحدثني بأنك منصفي ... روحي فداك عرفت أم لم تعرف
يا مانعي طيب المنام ومانحي ... ثوب السقام به ووجدي المتلف
رفقاً على رمقي وما أبقيت لي ... من جسمي المضني وقلبي المدنف
وحياتكم وحياتكم قسماً وفي ... عمري بغير حياتكم لم أحلف
لو أن روحي في يدي ووهبتها ... لبشير قدومكم لم اسرف

٣ — وفي أوربا تداوى بعض الأمراض العقلية بالموسيقى . وفي مصر والى عهد غير بعيد كانت مستشفى الأمراض العقلية تدفع أجراً لبعض العازفين ليحضر في أوقات معينة ويعزف بعض القطع على الكمان ليعالج بها بعض المرضى الذين بحسب استعدادهم يعالجون بالموسيقى وقد أثبت الأستاذ أحمد فهمي أبو الخير أنه من الممكن تحضير بعض الأرواح بوساطة موسيقى خاصة .

٤ — وإذا عرفنا أن الجمال تناسب بين أجزاء مركبة سواء أكان ذلك في الماديات أم في المعقولات وفي الحقائق أم في الخيالات ، فان الصوت الجميل نوع من الجمال لانه يقوم على تناسب بين النغمات

٥ — وكما أن أبيات الشعر قيود المعاني كذلك الألحان قيود الشعر فلا تزال أبيات القريض تنساق من الآذان حتى يقوده الصوت الحسن فاذا هو مستودع في الصدور . لذلك نشأت الأناشيد الدينية المختلفة والقصائد العلمية كألفية ابن مالك والأناشيد الحماسية في الحروب ليسهل حفظها ويقوى أثرها في النفوس .

٦ — والغناء فن من الفنون الطبيعية تهتدي اليه النفوس بالفطرة المترنحة في حدير الحمام وخرير المياه وحفيف الأشجار، فهو فن قبل أن يكون صناعة فن، من يوم ميلاده، فن بطبيعته ونشأته. لم يفكر فيه الناس واعاظهم على ألسنتهم أول الأمر في صورة الغناء فكان الغناء من ذلك شيئاً لازماً للانسان لا غنى عنه لأنه متصل بالنفس ومشاعرها ومتصل بالحواس وما ينتابها فهو كالروح في الجسد.

ويترتب على كون الغناء فنّاً من الفنون النتائج الآتية:

١ — إن للغناء أهمية نفسية في المجتمع — فهو وسيلة لربط المشاعر بين الناس فهو من أقدم الطرق لخلق روح المشاركة الوجدانية بين الفرد وغيره في المجتمع فبواسطته ينقل الانسان مشاعره وينقلها الى غيره في محيطه الذي يعيش فيه. ويعبّر عن منله وآماله وغاياته في الحياة

٢ — أهمية انسانية تتمثل في أنه مظهر فطري عام في سائر المجتمعات البشرية على اختلاف أشكالها فنحن نجده عند الشعوب المتأخرة والمتمدينة على حد سواء

٣ — أهمية مادية — وهي أن الغناء متصل بالفنون العملية وهذه الأهمية هي التي تعطي الغناء قيمته الاجتماعية

٤ — والغناء كفن من الفنون متدخّل ومرتبط ارتباطاً وثيقاً بسائر شئون الاجتماع وظاهراته فهو مثلاً مرتبط بحياة الأسرة فالزواج من مستلزماته إقامة الأفراح التي تستخدم الموسيقى والغناء الخ...

٥ — كذلك يتدخّل الغناء في الحياة الدينية وخاصة في الديانة المسيحية فهي تستخدم الموسيقى والغناء والخطابة للتأثير على متبعيها.

٦ — كذلك يتدخل الغناء في الحياة اللغوية فالقطع الغنائية ما هي الا شعر أو زجل حوى من الالفاظ والمعاني ما تزهو به اللغة.

٧ — ولما كانت الموسيقى والغناء في العهود والمجتمعات الحديثة التي تسودها الديمقراطية، كانت الموسيقى والغناء فنّا ديمقراطيّا لم تتقدم إلا في العهود الديمقراطية التي أقرت بحقوق الانسان.

لذلك كله كان للمغنين الشأن الرفيع في مجالس الخلفاء والأمراء والنصيب الأوفر من جوائزهم وصلاتهم ولا غرو في ذلك فسلطان الوجدان كسلطان الأديان. وقد كانت الأصوات عند العرب تنسب الى واضعيها وتسمى بأسماء اصحابها كما هو الشأن في الشعر فيقال صوت إسحاق أو معبد كما يقال شعر مسلم أو بشار. وكان المغني أحرص على صوته من الكريم على عرضه، فاذا صنع صوتاً لا يسمح لأحد من المغنين بأخذه عنه حتى يغنيه مراراً وتعرف

نسبته اليه كما يفعل اليوم المخترعون والصانعون من أخذ الامتيازات لمخترعاتهم وصناعاتهم. وكانت مجالس الغناء عندهم تشبه ان تكون مجالس علم لدراسة هذا الفن وتهذيبه، فكان أحدهم لا يحسن إذ رأى في صوت صاحبه عيباً أن يكلمه فيه وان يبين له مواضع الخطأ مهما يعظم شأن المجلس وشأن صاحبه.

وخلاصة البحث: — ان السماع ينقسم الى ثلاثة اقسام وهي: —

١ — حرام محض — وهو لمن غلبت عليهم شهواتهم ولذاتهم وفسدت مقاصدهم ولا يحرك السماع منهم إلا ما هو الغالب عليهم وعلى قلوبهم من الصفات المذمومة.

٢ — مباح — وهو فيما أظن لمن قصد به مجرد التلذذ بالصوت الحسن وجلب السرور والفرح أو يتذكر به غائباً فيستريح بما يسمعه.

٣ — مندوب — وهو فيما أظن لمن غلب عليه حب الله والشوق اليه فلا يحرك السماع منه إلا الصفات المحمودة وتتضاعف الشوق الى الله واستدعاء الأحوال الشريفة والمقامات العالية، فمن ظهر له ذلك فهو مندوب له مباح وهذا القسم الثالث هو سماع الصوفية أهل الصدق والاخلاص. ويبدو لي ان الغناء لا يحرم إلا اذا كان غالباً على صاحبه بحيث يشغله عن إداء الفرائض له، أو كان في هوى مذموم، أو كان بمثابة شاغل له عن اداء حقه وواجباته والا فهو جائز.

﴿ استدراك ﴾: وإذا احتج اعداء الغناء بان الغناء يميل في هذا العصر الى العاطفة الجامحة فما من أغنية إلا وملؤها الحب والهيام والهجر والخصام الذي يشجع للنشء على المجون، فلا شك أنهم محقون في ذلك، لأن مثل هذا الاتجاه في الغناء يسيء اليه كفن له مكانته وعظمته. حقيقة كان الغناء في مصر منذ عشرات السنين يميل الى المجون بسبب رداءة التأليف

وكذلك كانت الموسيقى المصرية القديمة بدائية هزيلة ليس فيها عمق ولا محتوى ولا معنى فكانت أناشيد الأذكار أعمق ما فيها، وكان جمهور مستمعيها من ذوي الجهالة والضلالة وكان الكلام الذي تتألف منه الأغاني محشواً بألفاظ تركية أو ألفاظ عامية ليس فيها ذوق أو جمال مثل: —

ماشفتوش «علي» يا ناس لابس قيص ولباس
ويلعب البرجاس عالقطرة

لكن الغناء في هذه الأيام تطوّر تطوراً مشكوراً محموداً فيما هو الأستاذ عبد الوهاب يعمل على ترقية النشء وتثقيفه بأغانيه فيصوّر لهم تاريخ كليوباترا المجيد في

أغنية كليوباترا ويجنبهم الشقاق والخلاف في أغنية (إلام الخلف) ويدفعهم الى المطالبة بحقوقهم الوطنية في أغنية السودان ونشيد العلم وغيرها من الأغاني بل من الدروس الاجتماعية الخالدة وها هي ساحة العصمة الآنسة أم كلثوم ابراهيم كوكب الشرق تصف الربيع وتغني للعيد وفي هذه الأغاني وغيرها تسمع غناء شرقي الطبع ، انساني المنزع والغاية وذلك لأنها تختزن في ذاكرتها القوية مدداً لا ينفد من المشاهدات والملاحظات وتطالعنا موسيقاها في أغنية (غلبت أصالح في روحي) بخيال سام وفكر عميق وهي مزيج بديع من العقل الشرقي في كمال يرتفع عن الشهوات وجمال ما بعده جمال. ثم هي لم تقتصر على الغناء الوصفي بل سبقته الى غناء أسميه (بالغناء الوطني) كما في (أغنية السودان)

هذا الغناء كله تهذيب وإصلاح لأنه يطهر العقول من طيش الشباب ونزواته وإنه لمن دواعي الفخر أن يكون لأم كلثوم الفضل الأكبر في (الغناء الروحاني) كما أسميه وهو غناء يقصد به تطهير القلوب من نزعاتها وشرورها وحملها على العبادة وذكر الله فها هي تصور لنا حياة العرب أيام الرسول وما فيها من نسك وعبادة وكأنها حين تغني تستحضر صور الرسل والأنبياء بما لهم من مهابة وجلال . ذلك لأنها تغني كلاماً هو أقرب الى التصوف والعبادة بل أن في غنائها له تصوف وعبادة لأنها بحسن أدائها وبراعة تصويرها للمعاني تخلق لنا حياة صوفية حية فاتنة . فهي حين تغني ذاكرة خالقها أو مادحة رسوله الكريم إنما تعبر عن إخلاصها وصدق إيمانها وعميق حبها لله والرسول . وها كم مثل من أغانيها الصوفية : —

ولا يثنيك عن خلق الليالي كمن فقد الأحبة والصحابا
فمن يغتر بالدنيا فاني لبست بها فأبليت الثيابا
جنيت بروضها ورداً وشوكاً وخفت بكأسها شهداً وصابا
فلم أرَ غير حكم الله حكماً ولم أرَ دون باب الله بابا

وها هي أم كلثوم أيضاً تمدح النبي صلى الله عليه وسلم في قصيدتها المحبوبة نهج البردة التي جاء فيها :

لزمت باب أمير الأنبياء ومن يمسك بمفتاح باب الله يغتنم
محمد صفوة الباري ورحمته وبغية الله من خلق ومن نسم

وكذلك تصور لنا أم كلثوم في أغنية (ولد الهدى) جمال الدين وجلاله وعظمة الرسول وكماله إلى غير ذلك من الأغاني الروحية الخالدة .

ورحم الله أحمد شوقي بك الذي نظم هذه الدرر الغوالي التي تغنيها أم كلثوم والتي

الردهي بها الشعر المصري وصار من الخالدين. وإن قصيدة (ولد الهدى) لا تزال دليلي على خلود شعر شوقي بك لأنها تتضمن معاني واضحة كالشمس مجلية كالدر عطرة كالزهر صاغها في ألفاظ مناسبة لهذه المعاني تمام المناسبة حتى تكاد تعلن عن معانيها بمجرد النطق بها. ولست أدري هل كان رحمة الله عليه ينظم شعراً من ألفاظ ومعان أم يجمع أزواجاً من صور ومعان حين قال :

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وثناء
الروح والملأ الملائك حوله للدين والدنيا به بشراء

هذه الأزواج وتلك المعاني السامية تغنيها الآنسة أم كلثوم فتضفي عليها من صوتها وفنها ما يمنحن هذه الأزواج والمعاني بل إنها بروحها الطاهرة النقية تتهم بها المعاني، أما شعورها .. أما تفريدها فهو المعاني السامية التي تحسها وتلمسها وتشعر بها دون أن تعبر عنها. ولقد رأيت الكثيرين يطلقون الخمور ويتوجهون بالدعاء إلى المولى عز وجل حين تغني أم كلثوم (ولدي الهدى) ولما سألت أحدهم عن سبب ذلك قال إنه كاد أن يرى الرسول الكريم في جلاله ومهابته وبين حوله الملائكة يسجدون ويستغفرون.

ربما يعترض البعض علينا بحجة أن الغناء ماطقة . غير أنه أصدق العواطف ما تنزه عن الحاجة والغاية ، ومناجاة الله لا حاجة فيها ولا مقصد من ورائها فنحن نناجي الله حبا في ذاته الكريمة لا نقصد ثواباً ، ولا نخشى عقاباً. وإذا صدرت عاطفة الحب الصادق عن قلب صادق صارت بذاتها إثماً لا يعادله نعيم، كما أنه استغفار وألمامه استرحام، وصداه وحي يوحى إلى القلوب فيملأها نوراً تحيا به الأرواح والأجساد. لهذا كله ارتفع الغناء وبلغ الذروة بغناء أم كلثوم في أغانيها الثلاث (سلوا قلبي) و (نهج البردة) و (ولد الهدى) —

وإنه لمن دواعي السرور حقاً ان تراعي محطة الاذاعة اللاسلكية الحكومة المصرية النواحي الاجتماعية والخلقية في الأغاني المختارة فهي لا تقبل بحال الأغاني المبتذلة الرخيصة وبعد أفلا ينهج المطربون والمطربات في الوقت الحاضر نهج أم كلثوم وعبد الوهاب في أغانيهما حتى يرتفع الفن إلى درجة النفع والاصلاح .

[المقتطف] : — نشكر كاتب هذا البحث على الجهود التي بذلها في سبيل توضيح تبرير الغناء، غير ان أبيات ابن الفارض المذكورة في صفحة ٢٠٨ ليست نصاً صريحاً بأنها لله ولا يليق أن تكون له تعالى فهي ليست في الموضوع . ثم ان الكلام في الحرام والحلال في الدين أدق موضوع وأصعبه ، فكما لا يجوز ان يحل انسان ما حرّم الله ، لا يجوز ان يحرّم ما احلّ الله، فنحن لا نجزم بأن لسماع الأغاني حرام.